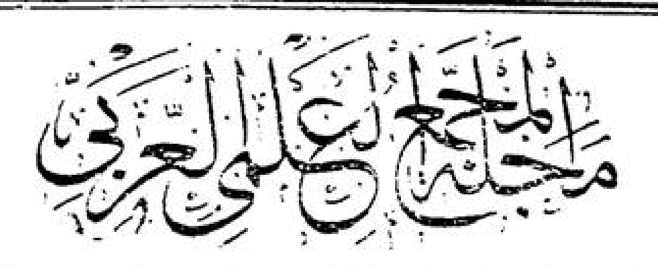



( دمشق ) آذار سنة ١٩٢٥ م الموافق شعبان ورمضان سنة ١٣٤٣ هـ

# وصف مخطوط

## نظم درة الغوّاص

كانت السنة الماضية سنة (١٩٢٤) أمثل سنة تيسر فيها لمجمعنا العلمي ان يشتري ويتّهب ويقتني من التحف والآثار والكتب المطبوعة والمخطوطة — اعلاقاً نفيسة • وذخائر ثمينة • وقد كان في جملة المخطوطات التي اقتناها نسخة صغيرة الحجم لا تتجاوز اوراقها السبعين ورقة بالقطع الصغير المستطيل بعض الاستطالة • تقتحمها عين رائيها وتنبو عنها نفسه اول وهلة • حتى اذا تصفحها • ورأى حسن خطها • وجمال موضوعها تبعتها نفسه وحام حولها قلبه وقد كتب على ظهر هذه النسخة كلمتا (درة الغواص) وتحتهما جملة (لابن المتربض الحويذي) فظن مالك النسخة ان ابن المتربض هذا هو مؤلفها فكتب في اسفل الورقة ما نصه (درة الغوّاص لابن المتربض وهي محتوية على قواعد من نحو ومعاني وغيره وقد تملكه السيد احمد مؤيد عظم زاده سنة ١٢٤٢) اهـ مع ان النسخة ليست (درة الغوّاص) المشهورة وانما هي (نظم درة الغوّاص) ومؤلفها ليس (ابن المتربض الحويذي) وانما هو شاعر مشهور كما سيجيء • وليست هي في قواعد النحو والمعاني وانما هي في كشف اوهام الخواص فيما يخطئون به من كلمات اللغة العربية والذي جعل مالك النسخة (عظم زاده) يحسب ان مؤلفها هو ابن المتربض انه رأى على ظهر الكتاب بيتين من الشعر قال كاتبهما انهما لابن المتربض وهما :

(وقالوا تركت الشعر لا عن ضرورة ولم تخترع معنىً قديماً ولا بكرا)

( فقلت تجلّت بعض انوار حسنه على طور احشائي فأحرقت الفكرا )

واتفق ان كنّيتي ( لابن المتربض ) كتبتا تحت كنّيتي ( درة الغوّاص ) وتحتهما البيتان المذكوران فظن (عظم زاده ) ان ابن المتربض هو المؤلف وذهل عن البيتين المراد نسبتهما اليه · ولا حاجة بنا الى البحث عن ( ابن المتربض ) من يكون ؟ وانما بحثنا يدور حول ثلاث مسائل ( درة الغوّاص )و ( ناظمها ) مؤلف هذه النسخة · و ( ناسخها ) الذي كتبها بخطه ·

( درة الغوّاص ) أشهر من ان تُعرّف وهي للحريري صاحب المقامات تتبع فيها نحو ( ٢٢٣ ) عثرة لغوية من عثرات خواص اهل زمنه · فاصلحها كما يتتبع المجمع العلمي اليوم عثرات كتاب زمنه · وقد أُلّف في تصحيح اغلاط الكتّاب كثيرون غير الحريري لكنه لم يشتهر مصنّف احد ويُقبل الناس عليه كما اشتهرت ( درة الغواص ) · والذي ساعدها على هذا الاشتهار اختها ( المقامات الحريرية ) التي أحيت في العالم العربي كلمات اللغة الفصيحة ولم يشاركها في هذه المزية ( حاشا القرآن والحديث ) كتاب عربي سواها فمهما زهدنا في مقامات الحريري من حيث اسلوبها المسجع · لا ينبغي ان ننكر فضلها من حيث إذاعتها فصيح اللغة العربية والمختار من اساليبها وتعابيرها

( ناظم درة الغوّاص ) لما أقبل طلاب الادب على مطالعة ( درة الحريري ) وحرصوا على الاستفادة منها كل الحرص رأى علماء اللغة الحاجة ماسة الى خدمتها ( أي شرحها والتعليق عليها والتنبيه الى اغلاطها ) · وأقدم من علّق عليها شروحاً وحواشي من علماء اللغة ( ابو محمد عبدالله بن برّي ) المصريّ وكان سيبويه عصره · ولما مات الحريري سنة ( ٥١٦ ) كان ابن برّي هذا ناشئاً في السابعة عشرة من عمره · عاكفاً على تحصيل اللغة والأدب من اشياخ مصره · وكانت وفاته سنة ( ٥٨٢ ) اي بعد وفاة الحريري بنحو ست وستين سنة · ولم يقف ابن برّي موقف الشارح لآثار الحريري الخادم الامين عليها فقط · بل هو فوق ذلك نافح عن الحريري · ورد سهام الاعتراض التي كانت توجه اليه : فان ابن الخشاب لما نقد ( الدرة ) و ( المقامات ) انبرى ابن برّي لتخطئته في قوله · وتصويب ما قاله الحريري وما قصّر في عمله · وأشهر من شرح الدرة من أدباء المتأخرين الشيخ الخفاجي المتوفى

سنة (١٠٦٩) هـ وقد طُبع شرحه في الاستانة سنة (١٢٩٩) هـ ٠

ومن طرائق الخدمة التي خدمت بها درة الغواص طريقة ربما لم يعرفها احد من علماء الامم غير الامة الاسلامية : وهي ان يعمد المؤلف الى كتاب مشهور يتدارسه الطلاب كثيراً فينظمه شعراً من اوله الى آخره بالغاً ما بلغ من عدد الابيات ليسهل حفظه على الطلاب ٠ وهكذا فعل بعض علماء اللغة في (درة الغواص) فنظمها ابو الفتوح عبد القادر ابن ابراهيم ابن العتبة المتوفى سنة (٩٠٧) هـ ثم شرح نظمه ٠

وكان سبقه الى نظمها (السراج الوراق) الشاعر والاديب المصري المشهور المتوفى سنة (٦٩٥) وهو صاحب القصائد والمقطعات الكثيرة في المعاني الشعرية المختلفة لا سيما التفنن في التورية باسمه (السراج) من ذلك قوله :

(بنيّ اقتدى بالكتاب العزيز وراح لبرّي سعياً وراجا)
(فما قال لي أفٍّ مذ كان لي لكوني أباً ولكوني سراجا)

والنسخة المخطوطة التي نصفها الآن هي نظم درة الغواص (للسراج الوراق) المذكور ٠ وينبغي ان تعدّ من أنفس الذخائر لندرتها وقلة نسخها٠ حتى ان من ترجم السراج الورّاق أو ذكر نظمه لدرة الغواص لم يكن يعلم انه هو صاحب هذا النظم في غالب الظن: فان ابن شاكر الكتبي في فوات الوفيات (جزء ٢ ص ١٠٧ طبع مصر) ترجم للسراج الورّاق ترجمة حسنة وذكر كثيراً من قصائده وشعره ولم يقل انه نظم درة الغواص وسماه هكذا (عمر بن محمد بن حسن سراج الدين الوراق)

وجاء غيره ممن ترجم له (كدائرة المعارف العربية جزء ٩ ص ٥٤٦) فحذوا حذو ابن شاكر واسهبوا في سرد نموذجات من اشعاره ولم يشيروا الى انه نظم الدرة ٠ اما الذين دوّنوا تراجم المصنفين والمصنفات كصاحب (كشف الظنون) وكالسيوطي في (بغية الوعاة) فانهما اكتفيا بقولهما (عمر بن محمد بن الحسن الفائزي سراج الدين صنف ارجوزة نظم فيها درة الغواص) وزاد السيوطي في القابه (ابو حفص ابن بدر الدين السديدي ابي علي) لكنهما لم يذكرا بلده ولا في اي عصر عاش ولم يقولا انه هو الشاعر المشهور صاحب المقطعات الشعرية المتداولة في كتب الادب ٠ فهل هما لم ينتبها الى أنه هو المراد ؟ وهل من المحتمل ان يكون سراج الدين الوراق

ناظم الدرة غير سراج الدين الوراق الشاعر المصري المشهور ؟ واری ان هذا بعيد بعد ان توارد الجميع على اسمه واسم ابيه ولقبه

والسراج الوراق في أرجوزته هذه لم يقتصر على نظم متن درة الحريري بل أتبعها بنظم تعاليق أو شروح ( ابن برّي ) عليها فجاءت ابياتها في نحو ( ١٨٠ ) بيت من الشعر الرجز السهل في عبارته . الواضح في بيانه واشارته . وحسب القارىء ان يعرف ان الناظم هو السراج الوراق الشاعر الرقيق . وهاك ما قاله في فاتحة الارجوزة

( بحمد ربي ذي الجلال ابتدي هادي الورى بالمصطفى محمدِ )

وقوله ( هادي الورى ) نعت لذي الجلال اي ان الناظم يبتدىء ارجوزته بحمد ذي الجلال الذي هدى الورى بمحمد صلى الله عليه وسلم .

ثم قال مخاطباً من اقترح عليه نظم الدرة :

( سألتَ نظمي درة الغوصِ فخذ جواب صادق الاخلاصِ )

( وتلوها مآخذ ابن برّي شيخ النحاة سيبويه مصرِ )

ثم بدأ بأول كلمة انتقدها الحريري وهي كلمة (سائر) بمعنى الباقي لا بمعنى الجميع فقال:

( فسائر جاء بمعنى الباقي على اختلافٍ فيه واتفاقِ )

وقد اراد بقوله ( مآخذ ابن برّي ) مواضع المآخذه التي كان يراها ( ابن برّي ) احيانا في كلام (الحريري) او ان مراده بالمآخذ الشواهد الشعرية التي كان يستند اليها (ابن بري) في تخطئة ( الحريري ) تارةً . وفي تأييده تارةً اخرى : فان ناظم الارجوزة كان يدمج هذه الشواهد ويشير اليها في صلب النظم . وهو فوق ذلك اذا رأى النظم ضاق عليه عدل عنه واخذ في نثر الكلام نثراً : فيذكر بيت الشاهد ويستوفي احياناً بعض مسائل من كلام الحريري في درته لم يكن الناظم ادخلها في النظم . وهاك هذا المثال من كلا الكتابين الدرة ونظمها

قال الحريري ( ويقولون انساغ لي الشراب فهو منساغ والاختيار فيه ساغ فهو سائغ قال الشاعر :

( وساغ لي الشراب وكنت قدما أكاد أغص بالماء الحميمِ )

وفي القرآن الكريم ( لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ) ومن حكي انه سمع في بعض

اللغات (انساغ لي الشيء) فانه مما لا يعتد به ولا يعذر من يستعمله في الفاظه او كتبه انتهى قول الحريري . وقوله في بيت الشاهد (أكاد اغص بالماء الحميم) كأنه هو الحق في رواية البيت . والحميم هنا بمعنى الماء البارد . ويطلق على الماء الحار ايضاً فهو من الاضداد . والمشهور على لساننا في انشاد البيت (اكاد اغص بالماء الفرات) .

وقال الناظم سراج الدين الوراق جامعاً بين قول الحريري السابق؛ قول شارحه (ابن بري) في مؤاخذاته عليه :

(وقولهم انساغ لي الشرابُ وهمٌ ولكن ساغ لي الصوابُ)

(وفي الكتاب وهو الحق المبين وقد قرأت سائغاً للشاربين)

(ومنه بيتٌ جاء في الشعر القديم آخره أغصُّ بالماء الحميم)

ثم ذكر الناظم ذلك البيت الذي ورد في الشعر القديم بنصه فقال وهو فساغ لي الشراب الخ ثم عاد فقال :

(قال ابن بري ساغ وانساغ ورد مطاوعاً من الثلاثي ورد)

(وابن دريد الحبر قد أوما لها بقوله فانساغ عذباً في اللهى)

يعني ان ابن دريد استعمل في مقصورته المشهورة كلمة (انساغ) ومثله من يحتج به . ويوثق بقوله . وشعر المقصورة الذي وردت فيه (انساغ) هو قوله :

(والناس كالنبت فمنه رائق غضٌّ نضير عوده مرُّ الجنى)

(ومنه ما تقتحم العين وان ذقتَ جناه انساغ عذباً في اللهى)

وقد قلنا آنفاً إن السراج الوراق علق شروحاً على بعض ابيات ارجوزته . لكنها شروح قليلة اللفظ كثيرة المعنى لا تخرج عن كونها تعاليق وهوامش . ثم ختم ارجوزته بقوله :

(قد انقضت فوائد البصريّ قرينها فوائد المصريّ)

يريد بالبصريّ الحريري وبالمصري ابن بريّ .

(شيخنا البلاد ابوا محمدِ نظمتها كالعقد للمقلّدِ)

(ليسهل الحفظ على الطلابِ ويخرج القول عن الاسهابِ)

(واسأل الرحمن أن ينفعنا بما قصدناه وأن يرحمنا) الخ

(ناسخ هذه الارجوزة) لم يكتف ناسخها بنسخها والسكوت على آخرها بل هو كان شاعراً ظريفاً ولم يقل شهرة في زمنه عن ناظمها (السراج الوراق) في عصره ختمها من نظمه بقوله:

(نسخ المرجّي عفو ذي الجلال محمد بن الصالحي الهلالي)
(وتمّ في ارض دمشق الشام مشقاً على الطروس بالاقلام)
(وقد مضى من هجرة التهامي ألف سوى عشرين من اعوام)

يعني انه كتبها سنة (٩٨٠) هـ وقوله (مشقاً) يريد به مدّ حروف الخط أو الاسراع فيه . ولم نكن لنُعنى بذكر ناسخها لولا انه من رجال الفضل والادب في ذلك العصر . وخطه في هذه الارجوزة . غاية في الحسن والجودة . على طريقة الخط الفارسي الصغير الحروف . ولا عجب فان الصالحي هذا كان احد الموقعين للاحكام في المحكمة الكبرى بدمشق ولا يختار لمثل هذا العمل الا من كان مبرّزاً فيه متقناً له . ذكر ذلك المحبي في ترجمته (راجع خلاصة الأثر جزء ٤ ص ٣٤) وكذلك الخفاجي في ريحانته فانه ترجم له واشار الى حسن خطه فقال: (وخط تسر به النفوس . وتوشى بديباجته الطروس)

(خط زهت أزهاره والروض ينبته السحاب)

وقد توفي الصالحي المذكور سنة (١٠٠٤) ودفن في تربة الفراديس بدمشق

هذه هي مخطوطة الارجوزة النفيسة التي يكفي المتأدب اذا درسها أو استظهرها ان يكون قد استوعب فوائد درة الغواص منقحة من الشوائب والمؤاخذات التي نبه اليها (ابن بري) وما أجزلها فائدة

المغربي

